سحاب الكلام

د. فهد العرابي الحارثي

الشعر: الجسد.. والصوت

اليوم هو يوم اجازة (كان الجمعة) وقد انتابتني رغبة كاسحة في الابتعاد عن القراءات «ثقيلة الدم» فتناولت الشعر..

لقد قرأت شعراً كثيراً هذا اليوم، ووجدتني ارفع صوتي عالياً ببعض ما يهزني من ذلك الشعر، وفجأة أخذت تتأكد في داخلي فكرة «قديمة» كانت تراودني عن علاقتنا «الحديثة» بالشعر.

ان بعض أصحاب القصيدة الجديدة يقولون ان طريقة توزيع الكلمات فوق الورق هي جزء من ذات القصيدة فشكل ذلك التوزيع هو، في نظرهم، «جسد» القصيدة.. فكل قصيدة، اذن، لها جسد هو شكلها المحدد فوق الورق، ولها في الوقت ذاته، روح هي الشعر نفسه..

وهؤلاء عموماً لا يهمهم اي وجود حسي شفهي للقصيدة خارج الورق، ولهذا فهم لا يتحمسون لـ«الالقاءات» المنبرية، بل لعلهم يرون ان مثل هذه العلاقات، التي تتم في «جماعية»، مع الشعر هي مما يضعفه، فالشعر، في حالتهم، انما يكتب ليقرأ، وليس ليلقى فتهتز له الرؤوس والأعطاف!

وفي هذا اليوم «الشعري» من إجازتي الاسبوعية وجدت اننا بالفعل امام نوعين من الشعر: شعر تختلي به، وتناجيه ويناجيك وحدكما، فهو يصعب عليه ان يقبل بتدخل اي طرف ثالث، سواء كان ذلك الطرف فرداً او جماعة. وهو سيبوح لك ـ وحدك ـ باسرار كثيرة وأنت «تنظر» اليه مسجى فوق الورق، تقلبه كلمة كلمة، وتفتشه حرفاً حرفاً.

اما النوع الآخر من الشعر، فهو الشعر الذي لايجد وهجه وألقه الا عندما يملأ كل الفضاء من حولك وحول الآخرين المنصتين المتبتلين، ولهذا فأنا احس ان الشعر النبطي، او الشعر الفصيح التقليدي، هما نمطان من الشعر الذي نصفه كلام ونصفه «القاء». فالقصيدة جميلة وهي تبوح ببعض أسرارها في سكينة تامة فوق الورق، ولكنها تصبح اجمل، وهي تفضي باسرار اكثر، عندما تتحول حروفها من مجرد «أشكال» الى «أصوات» تنتشر في كل ما حولك، وأنت تقفز معها بروحك وبخيالك، مرة ذات اليمين، ومرة ذات الشمال. لا بل ان «الالقاء» ذاته قد يعطي القصيدة احياناً ما ليس فيها اصلاً من الجاذبية او مقدار الحسن والمعنى.

هل استمعت قط الى محمد العلي او عبدالله نور وهما يلقيان الشعر؟ جرب ذلك مرة واحدة على الاقل، وستري ان العقد جميل وهو يأخذ ذوي الالباب، ولكن النحر او الصدر الذي يحمله يكسبه جمالاً فوق جماله، او انه، بالأحرى، يظهره في احسن احواله، ويجعله في اتم ما اراد له مبدعه، فتفتضح كل عناصر القوة فيه، وتتدفق كل كوامن السحر الذي يضمره او ينطوي عليه. وما أظن الا ان أبا عطاء السندي، او زياداً الأعجم كانا على إدراك صادق لهذه المسألة، فهما ينتقيان غلماناً يلقون شعرهما على الناس ليس فقط لمجرد ان «لكنة» ظاهرة كانت تطغى على لسانيهما، ولكني أجزم انهما كانا يفعلان ذلك ايضاً لانهما عاجزان عن ان يفجرا في كلماتهما كل الينابيع، او كل الشحنات، الكامنة او المستترة، ومثلهما كان يفعل احمد شوقي، ومثلهما يفعل، حتى الان، شاعرنا الاستاذ محمد حسن فقي.

هل استمعت قط الى خلف بن هذال في شعره النبطي، ان قصائد هذا الشاعر وهي مسجاة مستكينة فوق الورق هي غيرها تماماً عندما تتحول الى «صوت» هو بالذات صوت الشاعر نفسه، وهي غيرها ايضا عندما تصبح وجوداً حسياً متطايراً يحيط بك من كل الاتجاهات. بل ان هناك من يرى ان قصائد ابن هذال هي، في نصفها المثير والمدهش، إلقاء. فالشاعر بمواهبه الممتازة في الالقاء، وهي مواهب تنسجم مع طبيعة الشعر النبطي وطبيعة جمهوره، يفجر في كلماته وجمله وأخيلته ينابيع لا يمكن لها ان تكشف عن نفسها وهي مجرد وجود هامد لا حركة او حياة فيه. ان خلف بن هذال، حسب هذا الرأي، يقول في الظاهر شعراً عادياً يمكن لبعض شعراء النبط ان يأتوا بمثله، او ربما باحسن منه. ولكن الذي يتفوق فيه خلف هو انه الأكثر قدرة على تفجير كل اسرار الكلمات، فهو يفرغها تماماً من كل شحنتها الشعورية. ولو قدر لغيره من بعض شعراء النبط ان يمتلكوا القدرة نفسها، او ما يقاربها، لتقدموا عليه دون ادنى شك ولبزوه. ونحن نعرف هؤلاء وهو ايضاً يعرفهم.

الشعر، اذن، لاسيما في صورته التقليدية او هيئته المعمارية المعتادة، ليس مجرد وجود ساكن، بل هو ايضاً حركة وصوت وصدى يملأ كل الفضاء المحيط بالمستمعين والمنصتين. فكما ان شكل القصيدة الجديدة فوق الورق هو، بالنسبة الى روادها، «جسدها» وهو جزء اصيل فيها، وهو يحمل بعض ايحاءاتها، فكذلك هو الالقاء بالنسبة الى القصيدة التقليدية، فهو جزء لا يتجزأ منها، وهو بدوره يحمل بعض ايحاءاتها وبعض شحناتها الشعورية.

وهناك ما سنقوله بعد غد ايضاً في هذا المجال.